جائحة "كوفيد-19" واشكالية كتابة التاريخ الآني

محمد مزيان

جامعة ابن طفيل. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. القنيطرة

mohammed.meziane@uit.ac.ma

ملخص

عرف تاريخ البشرية سلسلة من الأوبئة والجوائح التي ساهمت في تغير البنيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وفي موازين القوى على المدى البعيد، مثل ما حدث بعد الطاعون الأسود 1348-1351. كما تعرض المغرب بدوره وعبر سيرورته التاريخية إلى سلسلة من الأوبئة والمجاعات، على مراحل متقاربة تخللتها مراحل استراحة قصيرة كان لها تأثير واضح على مختلف البنيات، ما وفر مواضيع وسرديات للمؤرخين للتعامل معها، وفق منهج تحليلي. لكن الوضع تغير مع جائحة فيروس كورونا المستجد بحكم أن التأريخ لهذا الفيروس يندرج ضمن تاريخ الزمن الراهن، ما يطرح عدة إشكالات منهجية ومعرفية وجب التعامل معها بحذر منهجي شديد من أجل فهم الحاضر واستشراف المستقبل، وحتى لا يبقى المؤرخ خارج دائرة الزمن.

الكلمات المفاتيح: تاريخ الزمن الآني، فيروس كورونا المستجد، جائحة كوفيد-19، التأثيرات الجيوسياسية، المؤرخ.

Résumé

L'histoire de l'humanité a connu une série d'épidémies et de pandémies qui ont contribué au changement des structures politiques, sociales et économiques, à l'instar de ce qui s'est produit lors de la peste noire de 1348-1351. Le Maroc, de son côté, n'a pas échappé à travers son histoire, aux épidémies qui ont impacté sa démographie et son système économique et social. Toutefois, écrire l'histoire immédiate (celle du corona virus) pose aux historiens des difficultés épistémologiques et méthodologiques qui nécessitent beaucoup de prudence, et ce pour mieux comprendre le présent et anticiper l'avenir.

Mots-clés : *Histoire du temps présent, Corona virus, impact sociopolitique, historien, changements méthodologiques.*

تقديم

تستفز أخبار جائحة كوفيد-19 "COVID-19" (الناتجة عن فيروس كورونا المستجد) ذهن المؤرخ لانتشارها السريع في بقاع المعمور وعجز الدول، بما فيها المتقدمة، عن اكتشاف دواء يُمَكِّنُ من القضاء عليها، زيادة على الإجراءات الاحترازية التي قامت بها السلطات العمومية للحد من انتشارها. وتترتبت عن ذلك عدة أسئلة حول ما يمكن أن يقدمه الباحث في التاريخ من إفادة في هذا الموضوع؟ وهل التاريخ قادر على تقديم دروس تفيد في استيعاب ما يحدث؟ وهل للمؤرخ ما يكفي من المؤهلات للانخراط في هذا التاريخ الآني والتفاعل معه؟ وبأي أدوات منهجية يستطيع تحقيق ذلك؟ وإلى أي حد يمكن الحديث عن تحقيب تاريخي جديد لما قبل "كورونا" وما بعدها؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون حدثا وبائيا عصف بالمجتمعات وخلخل بنياتها؟ كيف يمكن إنجاز بحث علمي تتقاطع فيه نظرة المؤرخ والطبيب، والتاريخ الاجتماعي والتاريخ البيولوجي وتاريخ الذهنيات؟

تهدف هذه المساهمة إلى مساءلة التاريخ حول ما يمكن أن يقدمه من إجابات لما يعيشه العالم. فإذا كان الرأي السائد يرى بأن هذا التخصص يهتم بما وقع في الماضي اعتمادا على مستندات وأرشيفات وسجلات وغيرها، مما يجعله حبيس الماضي فقط، فإن المعرفة التاريخية، في حقيقة الأمر، تهتم بالإنسان في الزمن بعيدا عن التنميط أو الجمود. ولهذا يشكل حقل التاريخ الراهن مدخلا لهذه المساهمة.

1. جائحة فيروس كورونا وإشكالية التاريخ الآني

1.1. إشكالية التاريخ الآني

نستهل الحديث عن هذه الجائحة في الفترة الراهنة بالمحاذير المنهجية التي تعترض أي باحث في التاريخ حين يؤرخ لحدث معيش وساخن لم تظهر نتائجه النهائية بعد، ولم يفصح عن كثير من مكنوناته. فهو تاريخ متغير غير قابل لأي نوع من التأطير أو لأي نوع من الملائمة المُرضية، إذ يقول جون لاكوتير إن التاريخ الآني يتكون بصورة أساسية من القرب الزمني لعملية التحرير من الموضوع المتطرق إليه، ومن القرب الميداني بين الباحث والأزمة موضوع الدرس (جاك لوغوف، 2007). وقد ساهم تاريخ الزمن الراهن في تجديد مجال التأريخ. فإذا أردنا تعريفه، فإننا سنصطدم بمفهوم إشكالي هو "الزمن". ومما لا شك فيه، يمنح التاريخ الراهن للمؤرخ مساحة صغيرة من هذا الزمن، كنقطة بسيطة عابرة وسط أحداث قريبة، منفلتة، تختفي لحظة بدايتها وتشكلها (فرانسوا بيداريدا، 2001). لهذا، وجب اعتماد منهج صارم بعيدا عن التبسيط والسطحية. وقد حدد القديس أوغسطين في اعترافاته الأبعاد الثلاثة للزمن بقوله:

"حاضر الأشياء الماضية هو الذاكرة، وحاضر الأشياء الحاضرة هو الرؤية المباشرة، وحاضر الأشياء المستقبلية هو الترقب (الانتظار)" (القديس أوغسطين، 1991). وهو ما يحيل على أن كتابة تاريخ الزمن الراهن هي كتابة عن الماضي من منظور الحاضر وتوقع للمستقبل (فرانسوا بيداريدا، 2001). فدينامية التاريخ الراهن تمكن من خلق حوار مزدوج بين الماضي والمستقبل وفقا للصيغة المعروفة: "كل تاريخ هو تاريخ معاصر".

من هذه المنطلقات، اعتُبر التاريخ الراهن أو الآني نقلا مباشرا للحدث. وفي هذا السياق، يتداخل في التأريخ لجائحة كوفيد-19 الصحفي وعالم الاقتصاد ورجل السياسية والطبيب وعالم الاجتماع وعالم النفس، علاوة على تغير ملحوظ في شكل وطبيعة الوثائق التي اعتاد المؤرخ فك شفراتها. فقد تسارعت الأخبار والصور والتحليلات وإحصائيات عدد المصابين وعدد الوفيات والناجين وكُلفة ذلك على الصعيد الاقتصادي وانعكاساته السياسية على الدول الوطنية والنظام العالمي والتكتلات الإقليمية مثل الاتحاد الأوروبي، عبر المواقع الإلكترونية والإعلامية ومنصات التواصل الاجتماعي، فأصبحت كلها ناقلة للخبر، مما يطرح إشكالات منهجية أمام المؤرخ بخصوص التعامل مع هذا الزخم من المعلومات والأحداث المتجددة على مدار الساعة، والتمييز بين صحيحها وخطئها وتجريدها من أيديولوجيتها، والابتعاد عن الاستعجال. لهذا، وخدمة للمعرفة التاريخية، يتدخل المؤرخ من أجل ترتيب المعطيات وتحليلها وتقديم تفسيرات لها، خاصة وأنها لم تبح بكل أسرارها. ومن المهم الإشارة إلى أن المؤرخ لجائحة "كوفيد-19" يجمع اليوم بين كونه مختصا في الدراسات التاريخية، إذ يمتلك الأدوات المنهجية التي تمكنه من تحليل وتفسير الظاهرة، وكونه شاهدا على مرحلة معيشة بتجلياتها وانعطافاتها، بكل ما يحمله الشاهد من انفعالات نفسية ووجدانية.

ويبقى من السابق لأوانه الخروج باستنتاجات عامة أو شبه مؤكدة حول طبيعة الفيروس ومنطلقه، والعدد الإجمالي لضحاياه، وآثاره الجيوسياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية. لكن، لتحقيق ذلك يبقى من الضروري أن ينفتح المؤرخ على تخصصات أخرى من قبيل البيولوجيا وعلم الاجتماع وعلم الإحصاء والعلاقات الدولية والاقتصاد وغيرها، لتوسيع مداركه وللإحاطة بالموضوع بشكل عام. فالمعطيات الرقمية اليوم متوفرة ويمكن تحليل منحنياتها، كما يمكن الاستفادة من الوسائل التقنية للاحتفاظ بالمعلومات وتخزينها من أجل الحصول على إحصائيات نهائية، وعلى وضع صورة عن هذه الأزمة عندما تنجلي.

2.1. الكتابة التاريخية والأوبئة

ومن المحتمل أن يكون التأريخ لهذه الجائحة مغايرا لمسار التأريخ للأوبئة التي اجتاحت المغرب عبر فترات تاريخية مختلفة، نظرا للتغيرات المنهجية التي عرفها حقل الكتابة التاريخية

عالميا منذ القرن التاسع عشر مع المدرسة الوضعانية ثم خلال القرن العشرين مع مدرسة الحوليات، حيث انصهر الحدث في تاريخ العلوم الطبية وتم تدشين درب جديد في هذا المجال من البحث (فريدريك فانيورون، 2020).

والواقع أن الأعمال التي تندرج ضمن إنتاجات مؤرخي مدرسة الحوليات أو التاريخ الجديد تناولت مسألة الأوبئة في علاقة بالمدر الديموغرافي الذي كان مصاحبا لها، إذ قاد البحث عن أسبابه، الباحثين إلى الحفر في تاريخ الأوبئة التي عاشتها أوروبا خلال مسارها التاريخي. ففي فرنسا مثلا، تم تجديد البحث حول تاريخ الأوبئة والصحة بعد العمل الذي قامت به مدرسة الحوليات والتنقيب في الديموغرافيا التاريخية خلال السنوات 1950-1960، والوقوف على منحنيات الموت. وأدت دراسة أوبئة الماضي، خاصة من النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وربطها بالظروف المعيشية الجديدة، ودور الأطباء، وتطور النظريات الطبية وسياسات الصحة العامة، وبدايات الوقاية من خلال التطعيم في القرن التاسع عشر وانتشار العلاجات الفعالة، والوقوف على التطور الذي عرفته البشرية لضمان بقائها واستمرارها، إلى تحقيق تراكم في الأبحاث المنجزة حول أوبئة الماضي، والاحتفال بالانتصارات المتتالية للعلم والطب على الموت الوبائي، وإبراز تقدم الحضارة. وتجدد نهج كتابة تاريخ الأوبئة والطب، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، عبر خوض مغامرة "الفهم الكامل للتاريخ"، والبحث في الجوانب البيولوجية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، وفي سلسلة الأسعار والإنتاج والزواج والدفن (باتريس بوردوليه، 1997).

وفي هذا الصدد قدم جاك لوغوف وجون نويل بيرابين بحثا حول "وباء العصور الوسطى العليا"، وحاولا من خلاله إعادة رسم طرق الوباء ومناطق انتشاره، مجسدين رؤية مدرسة الحوليات في كتابة التاريخ.

واستمر القلق المنهجي حول الفصل في التحليل بين المستويات المختلفة (الاقتصادية والاجتماعية والسياسية) من جهة، وتوظيف الزمن البروديلي[1]، من جهة أخرى، في تصور هؤلاء المؤرخين للهياكل الاقتصادية، والمناخ، والظواهر البيولوجية التي تؤثر على تاريخ الإنسان، وعلى هياكل التجارة الدولية، عبر شبكة المبادلات بين عالمي البحر الأبيض المتوسط، ومراكز التجارة الإيطالية في البحر الأسود، وعلى نظام الإنتاج، حيث انتشر الطاعون، حسب العديد من الباحثين. وفي ذلك، يشير صاحب كتاب الطب الإمبريالي إلى أن وسائل التجارة والنقل الأوروبية ساعدت على نشر الأمراض وعلى تفشّي الكائنات الناقلة للأمراض والأوبئة، مثل

[1]- قسم فرناند بروديل (Fernand Braudel) الزمن إلى ثلاثة مستويات: الزمن الطويل المدى، الزمن المتوسط، ثم الزمن الفردي أو الزمن القصير.

البعوض والبراغيث والقمل. هذا ما حصل قبل عام 1800 بطول السواحل الإفريقية والأسيوية.

وكرس القرن التاسع عشر هذا الوضع، مع الاختراق الاستعماري الأوروبي، التجاري والسياسي، وما رافق ذلك من بنية تحتية: الطرق والسكك الحديدية ومنظومات الهجرة العمالية والتجنيد العسكري والإدارة المدنية (دافيد أرنولد، 1998). هذا ما يدفعنا إلى القول إن الترابطات العالمية، نتيجة التطور الاقتصادي والاستعماري، ساهمت في نقل العدوى ومُوصِلاتها من بلدان المنشأ إلى باقي المناطق خاصة الإفريقية والأسيوية (دافيد أرنولد، 1998).

3.1. الباحثون المغاربة والتأريخ للأوبئة

تناول الإخباريون المغاربة أمثال الضعيف الرباطي، وأحمد بن خالد الناصري، وابن زيدان، والمختار السوسي، مسألة الوباء والمجاعة في عمومية الظاهرة ووصفوها من خلال الحديث عن الوقائع السياسية والاقتصادية التي ميزت فترة حكم دولة ما أو سلطان معين، وبالتالي ورد الحديث عن الأوبئة والجوائح داخل ثنايا المصادر كوصف سردي وفي غياب لمعطيات إحصائية دقيقة. كما ركزوا على المراكز الحضرية الكبرى مثل فاس ومراكش وتطوان مع إغفال الحديث، في بعض الأحيان، عن وضعية البوادي والقرى. أما باقي المظان والوثائق، فنجد فيها معلومات متناثرة هنا أو هناك، فأغلبها إما نصوص منقبية أو فتاوى فقهاء أو إجازات طبية متفاوتة القيمة العلمية والتأريخية، حيث تناولت الجوائح بشكل عام مغلف بنفحة دينية، وصنفت على أنها من أدبيات الطواعين والأوبئة (محمد الأمين البزاز،1992).

بيد أن المؤرخين اللاحقين وتساوقاً مع تطور مناهج الكتابة التاريخية التي عرفها العالم منذ القرن التاسع عشر إلى اليوم، انصب اهتمامهم على تتبع الخريطة الوبائية بالمغرب من خلال البحث في المجاعات والأوبئة[1] التي اجتاحت المغرب في فترات تاريخية مختلفة، وكذا البحث في الرحلات الحجازية والسفارية ودورها في نقل الأوبئة، وانعكاسها على الوضعية الديموغرافية والاجتماعية، وما ترتب عنها من مشاكل اقتصادية جمة أثرت على المعيش اليومي وعلى الكتلة الديموغرافية للمغاربة وعلى حركة السكان وتنقلاتهم. فيما رصدت أعمال أخرى دور القوى الاستعمارية في الضغط على المخزن من أجل اتخاذ التدابير الوقائية والحجر الصحي على المناطق الموبوءة، بعد إنشاء المجلس الصحي الدولي بالمغرب سنة 1792، إذ اهتم قناصل الدول الأوروبية بطنجة بالمشاكل الصحية وأسبابها والحد من تفاقمها، وبأمور النظافة والمجازر والإنارة والطرق (محمد بن هاشم، 2000) .

---

[1]. مثل: أعمال الأيام الوطنية العاشرة التي نظمتها الجمعية المغربية للبحث التاريخي في موضوع: **المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب**، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، ضمن سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 4، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة، جامعة شعيب الدكالي، المملكة المغربية، 2002.

يرجع اهتمام المؤرخين المغاربة بهذه القضايا إلى انفتاحهم على مناهج جديدة وبالأخص، مناهج مدرسة الحوليات التي جسدتها كتابات فرناند بروديل وجاك لوغوف، إذ تناولت الجوانب الجغرافية وعلاقاتها بالوضعية الديموغرافية، وكذا بالأوبئة التي ضربت المجال المتوسطي في العموم بشكل دوري تقريبا. كما كانت مناهج وأدوات التاريخ الجديد وسيلتهم لتحطيم الجدران العازلة والخوض في قضايا الحياة والموت والتطورات المرتبطة بها على المستوى الاقتصادي والسياسي والاجتماعي في بنية زمنية طويلة، مع الاستفادة كذلك من تاريخ الذهنيات الذي منح متنفسا وحركية كبيرة في مجال التاريخ. لقد أوكلت دائما للتاريخ مهمة تأدية أكبر الأدوار الاجتماعية بمدلولها الواسع (لوغوف، 2007)، فأصبح وعي المؤرخ المعاصر بضرورة الإحاطة بمختلف أبعاد الظاهرة التاريخية والعوامل الفاعلة فيها مرتبطا بالتسلح بمناهج أخرى غير المنهج التاريخي (الحسين بولقطيب، 2002). وفي هذا الصدد، نقدم بعض الأبحاث على سبيل المثال لا الحصر، التي توضح اهتمام المؤرخين المغاربة بموضوع الأوبئة خلال فترات تاريخية مختلفة منها:

- محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

- الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين.

- بوجمعة رويان، الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945.

بالإضافة إلى بعض الدراسات المؤسسة لتاريخ الأوبئة والمجاعات، مثل العمل الذي قدمه برنار روزنبيرجي وحميد التريكي بعنوان "المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال القرنين 16 و17".

2. المؤرخ وجائحة "كورونا"

1.2. فعالية التاريخ

يعيش المعمور انتشار فيروس مدمر سريع الانتشار، والذي ظهرت بوادره الأولى في دجنبر 2019 بمدينة ووهان بالصين، واجتاح باقي الدول نظرا لقوة الارتباطات الاقتصادية والتجارية والسياحية والدينية، وحرية مرور الأفراد والرساميل. وبغض النظر عن طبيعة هذا الفيروس المجهري وأسباب ظهوره، وبعيدا عن فكرة المؤامرة، فإن ما تعيشه الإنسانية اليوم راجع بالأساس إلى اكتساح النيوليبرالية المعتمدة على الربح كمحرك للاقتصاد، ومبادئ العولمة التي تتجاهل البعد الإنساني وتضعه في مرتبة أقل أهمية، وتغييب أو ضعف أنظمة الرعاية الصحية والاجتماعية المناسبة في العديد من البلدان، والمثال واضح في هذا الشأن على أكثر من صعيد.

اليوم وأمام ما يعرفه العالم من اكتساح جائحة "كوفيد-19" يمكننا أن نتساءل، كما تساءل باتريك بوشرون من قبل، حول ما الذي يستطيع أن يفعله التاريخ اليوم؟ وما ينبغي عليه فعله ليستطيع الاستمرار وليبقى وفيا لنفسه؟ ويجيب هذا المؤرخ بأن التاريخ، أصلا، يتمرد على سلطته

نفسها ولا يمارس سلطته على أي شيء. كما أننا لا نطالب بإعطاء أي شيء للمؤرخين. ولذلك، علينا، بالأحرى، أن نتساءل عما يستطيعه التاريخ؟ بمعنى آخر: عما هو ممكن بالنسبة إليه وعما هو كامن فيه؟

تلك هي قوة التاريخ، إذ يمكنه أن يكون فن القطائع، فهو يعرف كيف يتلاعب بالنظام القسري للتسلسلات الزمنية، وبالتالي كيف يكون مثيرا للحيرة وللدهشة. فهو يزعج الجينيالوجيات ويثير قلق الهويات ويفتح فضاءً زمنيا يستطيع من خلاله المستقبل أن يستعيد حقوقه الكاملة في الشك، وأن رحب، بالتالي، بكل ما يسمح بتعقل الحاضر وبفهمه (مستعد، 2016). لهذا، فالتأريخ لزمن "الكورونا" يستدعي قدرتنا على الفهم والمساءلة والتفاعل مع ما يجري من تطورات أحدثها الفيروس المستجد. لأن الغاية الكبرى من الكشف عن كنه الأشياء وطبيعتها والعوامل المتحكمة فيها والعلم بكيفيات حصولها، وفق منهج مضبوط والاستعانة بالمعارف المتعددة، هي بلوغ الفهم الذي يعد مسألة أساسية في الفكر التاريخي، لأنه يمكّن من يتجاوز مستوى السرد والإخبار عن الوقائع السابقة والارتقاء إلى تحليل الأحداث وفهم طبيعتها وتفسيرها.

2.2. إشكاليات أمام المؤرخ

تشير قصاصات الأخبار إلى تزايد الطلب على كتابات تاريخ الأوبئة وأدب الوباء، وخاصة "الطاعون" لألبير كامي، و"الحب في زمن الكوليرا" لغابرييل غارسيا ماركيز، و"عيون الظلام" لدين كونتز، التي صارت تقرأ من جديد. كما تم الرجوع بقوة إلى الكتابات التاريخية التي تناولت تاريخ الأوبئة، باحثة عن العلاقة بين ما حدث وما يحدث، ومحاولة سد الفراغات أو تجاوز الأخطاء السابقة أو المواقف الخاطئة.

يمر العالم بأزمة كبيرة على جميع الصعد، لذا فمن الطبيعي أن نفترض أنها ستكون نقطة تحول في التاريخ المعاصر، إذ اختلف المحللون من جنسيات متعددة، ومنذ ظهور الجائحة، حول طبيعة النظام الذي ستخلفه. وجادل معظمهم بأن ما بعد الجائحة سيكون مختلفًا بشكل أساسي عما كان موجودًا من قبل. وتوقع البعض الآخر أن يؤدي الوباء إلى نظام عالمي جديد بقيادة الصين أو ربما عالم متعدد الأقطاب؛ فيما يعتقد طرف ثالث أن الجائحة ستؤدي إلى اضمحلال زعامة الصين. وأما أكثر المتشددين فيبشرون بنهاية عهد العولمة؛ بينما يأمل البعض الآخر أن تكون فاتحة لعصر جديد من التعاون العالمي. ولا يزال البعض الآخر يتوقع أن القومية ستنتصر، وتقوض التجارة الحرة، وتؤدي إلى تغيير النظام في مختلف البلدان (ريتشارد هاس، 2020).

وبرأيي، لا يمكن الركون إلى هذه التوقعات التي تظل ظرفية فقط وغير نهائية، كما أن الحديث عن عودة الدولة القومية بعد إغلاقها لحدودها وتحكمها في مجالها، كما كان الأمر في القرن

التاسع عشر، واسترجاع الدولة لسيادتها، كلام نسبي، لأن العولمة قطعت أشواطا متقدمة، وبالتالي لا يمكن أن تعود القهقرى ونعيش سيادة الدولة الوطنية كما السابق، زيادة على أن الدولة ظلت حاضرة بشكل قوي في المجتمعات النامية ذات الأنظمة الاستبدادية والتسلطية، ومارست عنفها المشروع وغير المشروع.

صحيح أن هذه الأزمة أبانت عن ضعف متعدد، وعن توحش النظام النيوليبرالي، وكذا عن أولوية الاقتصاد والتسليح على حساب الجانب الاجتماعي والصحي، وجعلت نظام العولمة أمام الاختبار بسبب انهيار سلاسل الإمدادات التجارية العالمية، وتخزين الدول للوسائل الطبية واعتراض حملات المواد الطبية الموجهة إلى دولة من الدول كشكل من أشكال القرصنة الجديدة، وغلق الحدود أمام حركة السفر الدولية، والاتفاق على تخفيض الدول المصدرة للنفط لإنتاجها إلى درجة غير مسبوقة حتى لا يؤدي استمرار الانتاج إلى انخفاض كبير في الأسعار.

ويفرض هذا الواقع إعادة تقييم رئيسية للاقتصاد العالمي المترابط، فالعولمة لم تسمح بالانتشار السريع للأمراض المعدية فقط، بل عززت الترابط العميق بين الشركات والدول، مما يجعلها أكثر عرضة للصدمات غير المتوقعة. الآن، تكتشف الشركات والدول على السواء مدى ضعفها. لكن درس الفيروس التاجي الجديد لا يكمن فقط في فشل العولمة، بل في هشاشتها (هنري فاريل وأبرهام نيومان، 2020). لذلك، فالفرصة مناسبة لإعادة التفكير في طريقة وأسلوب العيش، مما يحتم على الدول إعادة النظر في أولوياتها وفق عقد اجتماعي جديد يحدد المسؤوليات والصلاحيات ويهتم بالقطاعات الاجتماعية بعيدا عن منطق اقتصاد السوق.

على المستوى الجيوسياسي، فالأكيد أن عالم ما بعد كوفيد-19 لن يكون شبيها لما قبل الجائحة، فقد جاء في مقال نشر في "فورين أفريز" الأمريكية أنه مع عزل مئات الملايين من الناس حول العالم، أصبحت جائحة فيروس "كورونا المستجد" حدثًا عالميًا. ويجب وضع آثارها الجيوسياسية والصحية في الاعتبار، إذ تميل الأنظمة الدولية إلى التغير تدريجيًا ثم تتغير فجأة. ويقارن ذلك بما حدث سنة 1956، حين كشف فشل التدخل في قناة السويس عن انحطاط القوة البريطانية، ووسم نهاية عهدها كقوة عالمية. اليوم، يجب على صانعي السياسة الأمريكية أن يدركوا أنه إذا لم تتمكن الولايات المتحدة من مواجهة الجائحة والخروج منها بأقل الخسائر، فإن جائحة الفيروس التاجي يمكن أن تشكل لحظة مماثلة لإخفاق بريطانيا في السنة المذكورة، إذ يمكن أن يفتح ذلك فرصا اقتصادية أمام الصين، المنافِسة الشرسة للاقتصاد الأمريكي (كورت كامبل وروش دوشي، 2020).

سيترك الوعي بتداخل تأثيرات الفيروس، على أكثر من صعيد، آثاره على العلاقات الدولية وعلى السياسات الخارجية للدول، إذ من الممكن أن نرى إعادة رسم السياسات الخارجية وخلق

آليات تعاون جديدة تضع في الاعتبار الجانب الإنساني ومصالح الشعوب بالدرجة الأولى وليس المصالح الاقتصادية. لكن، من المستبعد أن نشهد تغيرا في ميزان القوى على المستوى العالمي، على الأقل في الزمن القريب، في حين ستظهر آثارها الاقتصادية والاجتماعية وكذا النفسية في الأيام القليلة القادمة.

3.2. المؤرخون المغاربة والكتابة عن الجائحة

تفاعل عدد من الباحثين المغاربة مع انتشار وباء كورونا فأنجزوا مجموعة من المقالات جعلت من التاريخ ميدانا خصبا لتذكير القراء بما عاشه المغرب وخارجه من أوبئة ومجاعات، لدرجة يمكن القول معها بوجود طفرة في المقالات والملفات الصحفية حول الأمراض التي أنهكت المجتمع المغربي عبر التاريخ، على اعتبار أن الأوبئة غالبا ما شكلت حدثا مأساويا، ولكن في الوقت نفسه حدثا مفصليا في مرحلة تاريخية معينة، مثل ما تمخض عن وباء الطاعون الأسود (1348-1350)، على المدى المتوسط والطويل، من بروز حركة انعتاق وتحرر فكري أدت في النهاية الى انهيار النظام الفيودالي، وتراجع سلطة الكنيسة، وبزوغ التطلع إلى نظام اقتصادي واجتماعي جديد قائم على العقلانية. ولذلك، يَعتبر المؤرخون الموت الأسود بداية عصر النهضة الأوروبية.

وعليه، فقد تساءل عدد من الباحثين عن دور التاريخ، وعن الحاجة إلى المؤرخ في مثل هذا الظرف الوبائي، وهل يمكن الحديث عن تحقيب تاريخي جديد اعتبارا لدور الأوبئة في سقوط وقيام الحضارات (القادري بوتشيش، 2020). ومنهم من رجع إلى كتابات عبد الرحمن بن زيدان والمختار السوسي ومحمد الأمين البزاز والأرشيف الفرنسي.

وذهب باحث آخر إلى القول بأن الأوبئة كانت سببا في إعادة التفكير في العديد من الممارسات والمفاهيم والمواقف، فنشأت سلطة جديدة مَثَّلَهَا الأطباء بدل سلطة الكنسية، حيث استطاعوا مكافحة وباء الكوليرا بطريقة مرتبطة بالبحث العلمي، فتغيرت الممارسات الصحية رأسا على عقب، وشكلت ثورة علمية مع لويس باستور (حبيدة، 2020). فيما تنبه باحث ثالث إلى أهمية التاريخ الديموغرافي لدراسة وباء الطاعون الأسود رغم غياب الإحصائيات وعدم معرفة العدد الإجمالي للسكان، وأقرّ بأن الدراسات التي أنجزت حول تاريخ المغرب لم تشر إلى تقدير عدد السكان، إذ قبل كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان لا يوجد مصدر حاول الوقوف على تقدير عددهم. (اجميلي، 2020).

وتفاعل عدد من الباحثين مع الحدث عن طريق إجراء حوارات صحفية بهدف تقريب عموم القراء والمشاهدين من هذا الوضع وإبراز خطورته، والوقوف على الإجراءات الاحترازية المتبعة والبحث في متون التاريخ عن تجارب مماثلة، مثل الوقوف على الإنفلوانزا الإسبانية 1918-

1919 كوباء مأساوي خلف ملايين الضحايا، وأبان عن الحاجة إلى اللقاحات. كما ظهرت باستمرار بعض الأسئلة في الأدبيات حول أصوله وتفشيه وعدد ضحاياه في بؤرها وعند تنقلها، والرد الاجتماعي عليه (فريدريك فانيورون، 2020). علّ ذلك يسهم في زيادة منسوب الوعي بخطورة ما نعانيه اليوم، خاصة وأن بعض الفئات من المجتمع المغربي لم تلتزم بالحجر الصحي الذي طبقه المغرب منذ 20 مارس 2020، بشكل كلي، بل خرج البعض في تظاهرات حاشدة ضد الجائحة، كما حدث في مدينتي فاس وطنجة مستحضرين حملات قراءة اللطيف التي سجلها التاريخ المغربي. زيادة على تجذر معتقدات وخرافات مرتبطة بالتفسيرات غير العلمية التي تناولت الجائحة، على الأقل في بدايتها، من ذلك مثلا أن قوة المناعة لدى البعض، من شأنها أن تقيهم الوباء، جراء تناولهم مواد غذائية بشكل يومي مثل البصل والثوم وزيت الزيتون والشاي... وهي أفكار موجودة في التعابير اليومية للمغاربة، وتعبر عن غياب الوعي العلمي بهذا المشكل، كما أنها ممارسات كانت موجودة في كثير من الوقائع التاريخية، مما يشير إلى استمرار بنية فكرية قديمة، رغم ما يقال عن الحداثة والتحديث في هذه المجتمعات.

ومرد اهتمام المؤرخين بهذه التغيرات إلى وعيهم بخطورة المرحلة، وإلى رغبتهم في الانخراط في النقاش المجتمعي، وإبداء رأيهم في القضايا المطروحة على الصعيد الوطني والدولي، خاصة وأن جائحة فيروس كورونا تشكل خطرا يستهدف الجميع دون تمييز ولا تعترف بالحدود الوطنية. وإلى حدود كتابة هذه الورقة، يمكن التقاط مجموعة من الإشارات، منها مثلا الصراع السياسي الواضح بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين، وفشل الاتحاد الأوروبي في تحقيق التضامن وتعزيز آليات التعاون. إذ أصبح مقسما بين دول الشمال ودول الجنوب الأوروبي التي اجتاحها "كوفيد- 19" ولم تجد السند والدعم الكافي من باقي دول الاتحاد. فهل سيساهم ذلك في تفكك الاتحاد الأوروبي مستقبلا؟ يبقى من المجازفة الحديث عن تغير النظام العالمي بشكل جذري بعد "كورونا"، لأن ذلك في نظرنا يحتاج إلى عدة تغيرات تمس هياكلَ التجارة الدولية وآليات صنع القرار السياسي العالمي، والبنيةَ الفكرية للمجتمعات عبر بنية زمنية طويلة. لكن، نلاحظ أن بعض الدول، مثل المغرب، بادرت إلى الاعتماد على الذات والتقليل من التبعية للخارج، فتحولت بعض الشركات إلى إنتاج أدوات طبية مثل الكمامات وتزويد الأسواق المحلية من هذا المنتوج، كما ظهرت بعض الكفاءات الوطنية لاختراع أجهزة التنفس الاصطناعي. كل هذه مؤشرات دالة على إمكانية الاعتماد على الطاقات والمواد الوطنية من أجل تعزيز الإنتاج الصناعي الوطني. وبالتالي إعادة بناء الإنسان. وإذا ما تحقق ذلك يمكن أن يساهم في إعادة بناء العالم بعيدا عن اللامعنى وعن القلق الذي أصبح يعيشه في الحجر الصحي وتجاوز القطائع المُهدّدة لأمنه البيولوجي.

خاتمة

تأسيسا على ما سبق، نُقر الآن أننا أمام وقائع هشة أو متقلبة وغير مستقرة، لكنها في الوقت نفسه تسمح بالتطلع للمستقبل، إذا ما استوعبنا خصائص المرحلة الوبائية التي اجتاحت العالم وتمكنا من الخروج منها بأقل الخسائر بعيدا عن التهويل، وعن التبسيط في الآن نفسه. فقد نحتاج إلى نيوديل آخر (New Deal) بإجراءات حقيقية تعيد للإنسانية آدميتها، وتركز على نماذج تنموية أكثر إنسانية، بعيدا عن الفردانية المقيتة.

من جانب آخر على المؤرخ أن يقدم معرفة تاريخية حول هذه الجائحة بما يتوفر عليه من أدوات منهجية، وجمع المعطيات وتمحيص المعلومات وتفسيرها ونقدها وإبرازها في قالب علمي، فالفترة الآن مناسبة لإعادة التفكير في هذا التخصص ومساءلة الحقب التاريخية التقليدية، والحاجة ماسة لكتابة تاريخ كوني جديد ووضع منهجية منفتحة بإقامة جسر للتواصل مع كتابات متنوعة المشارب، تجمع بين الصحة والديموغرافية التاريخية والاقتصاد والاجتماع ... واستثمار الذاكرة الجماعية التي بدأت تتشكل حول الموضوع، وتوظيف المعطيات الرقمية حول عدد الوفيات والمصابين والخريطة الوبائية والانعكاسات النفسية ... وغيرها من المجالات للتمكن من الخروج من حالة الانحسار وخلخلة وإرباك كل اليقينيات.

ذاك هو درس التاريخ الذي يمكن للمؤرخ أن يبرزه للقارئ.

المراجع

اجيلي حميد، "الطاعون الأسود" https://www.hespress.com/writers/466474.html تاريخ الاطلاع، 6-4-2020

أرنولد دافيد، الطب الإمبريالي والمجتمعات المحلية، ترجمة مصطفى ابراهيم فهمي، عالم المعرفة، عدد236، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1998.

الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن 2002 .

القادري بوتشيش إبراهيم، "هل يقرّب وباء كورونا نهاية العولمة وبداية تحقيب جديد للتاريخ؟" على الرابط https://www.hespress.com/histoire/465665.html تاريخ الاطلاع 6-4-2020

القديس أوغسطين، الاعترافات، ترجمة الخوري يوحنا الحلو، الطبعة الرابعة دار المشرق، بيروت، 1991 .

بن هاشم محمد، "العلاقات المغربية الأمريكية دراسة في تاريخ التمثيل الدبلوماسي الأمريكي بالمغرب 1776-1912"، أطروحة دكتوراه الدولة: جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس 2000 .

حبيدة محمد، من وباء "الكوليرا" إلى جائحة "الكورونا" ... الموت يرسم معالم الغد" على الرابط https://www.hespress.com/histoire/465330.html تاريخ الاطلاع، 2-4-2020

فريديريك فانيورون، الإنفلونزا الإسبانية عودة إلى وباء 1918-1919" ترجمة محمد حبيدة، على الرابط https://www.mominoun.com/articles/% تاريخ الاطلاع، 16-4-2020

كوثراني وجيه، "التاريخ والذاكرة والكتابة التاريخية دراسة نماذج: سايكس بيكو، الخلافة، ذاكرات طوائف لبنان"، مجلة أسطور، العدد 4، يوليو 2016.

لوغوف جاك، التاريخ الجديد، (إشراف)، التاريخ الجديد، ترجمة وتقديم ، محمد الطاهر المنصوري، مركز دراسات الوحدة العربية الطبعة الاولى بيروت 2007 .

محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط 1992.

مستعد محمد، "ماذا يستطيع التاريخ؟" من أجل تأمين علمي جديد لنظام الحقيقة لمهنة التاريخ" على الرابط https://ribatalkoutoub.com/?p=2402 تاريخ الاطلاع 6-2- 2020

Bédarida François, « Le temps présent et l'historiographie contemporaine », *Vingtième Siècle. Revue d'histoire* 2001/1 (no 69), p. 153-160. DOI 10.3917/ving.069.0153

Bourdelais- Patrice, "Histoire de la population, histoire de la médecine et de la santé: cinquante ans d'expérimentations", *Dynamis, Acta Hispanica ad Medicinae Scientiarumque* Historiam Illustrandam, 1997, 17, Grenade, pp. 17-36.

Henry Farrell and Abraham Newman, "Will the Coronavirus End Globalization as We Know It? The Pandemic Is Exposing Market Vulnerabilities No One Knew Existed", https://www.foreignaffairs.com/articles/2020-03-16/will-coronavirus-end-globalization-we-know-it (March 16, 2020)

Kurt M. Campbell and Rush Doshi, "The Coronavirus Could Reshape Global Order China Is Maneuvering for International Leadership as the United StatesFalters",https://www.foreignaffairs.com/articles/china/2020-0318/coronavirus-could-reshape-globalorder?fbclid=IwAR3sPOmIy61L8GFQ8EMqe2-Z7M1aH1z-ixKsb_XYi08UaPszR49z1U7YXb0,(March 18, 2020)

Richard Haass "The Pandemic Will Accelerate History Rather Than Reshape It Not Every Crisis Is a Turning Point". https://www.foreignaffairs.com/articles/united-states/2020-04-07/pandemic-will-accelerate-history-rather-reshape-it (April 7, 2020)



الحياة......

في زمن الفيروس التاجي "كوفيد-19"؟

مؤلف جماعي تحت إشراف:

جمال الكركوري　　　　أحمد الفرحان

يونيو 2020

الكتاب: الحياة... في زمن الفيروس التاجي"كوفيد- 19"

إشراف: جمال الكركوري وأحمد الفرحان

رقم الإيداع القانوني: 2020MO2036

ردمك: 978-9920-9476-0-2

الطبعة الأولى2020

